

بسم الله الرحمن الرحيم

المغاربة في دمشق

د. فواز منير الرجولة

باحث مركز الوثائق التاريخية دمشق

A partir du commentaire d'un document ottoman historique, cet article traite la question de l'immigration des Magrébins à Damas, son historique, ses raisons, leur intégration, leur devenir et les grands monuments historiques qu'ils ont construits. Les grandes vagues de migrations, notamment celles des "Oulémas", ont été abordées ainsi que les personnalités qui ont pu se distinguer.

في السجل 51 صفحة 220 من سجلات محاكم دمشق الشرعية العثمانية⁽¹⁾ تتحدث الوثيقة 507 المؤرخة في 10 رمضان 1141 هـ الموافق 9 نيسان/إبريل 1729 م عن المغاربة في دمشق حيث قسموا إلى سبعة طوائف حسب موطنهم الأصلي وتبين الأعمال التي اشتغلوا بها وتحدد التزاماتهم وضرورة مراعاتهم للأئمة وتبين الجهات ذات الصلاحية في مساءلتهم بالنسبة للمدني والعسكري منهم.

(1) ذكر الدكتور عبد الكريم رافق هذه الوثيقة في كتابه العرب والعثمانيون، مكتبة أطلس ط 1 دمشق 1974 ح 1 ص 52، وأشار إليها على أنها في سجل المحكمة الشرعية بدمشق رقم 59 ص 220 وتابعه في ذلك الدكتور يوسف جميل نعيصة في كتابه مجتمع مدينة دمشق دار طلاس ط 1 دمشق ح 1 ص 251. وتبين بعد الرجوع إلى سجلات المحكمة الشرعية بدمشق أن هذه الوثيقة موجودة تحت رقم 507 في الصفحة 220 من السجل رقم 51 وليس 59، والظاهر أنه خطأ مطبعي فاقتضي التنويه.

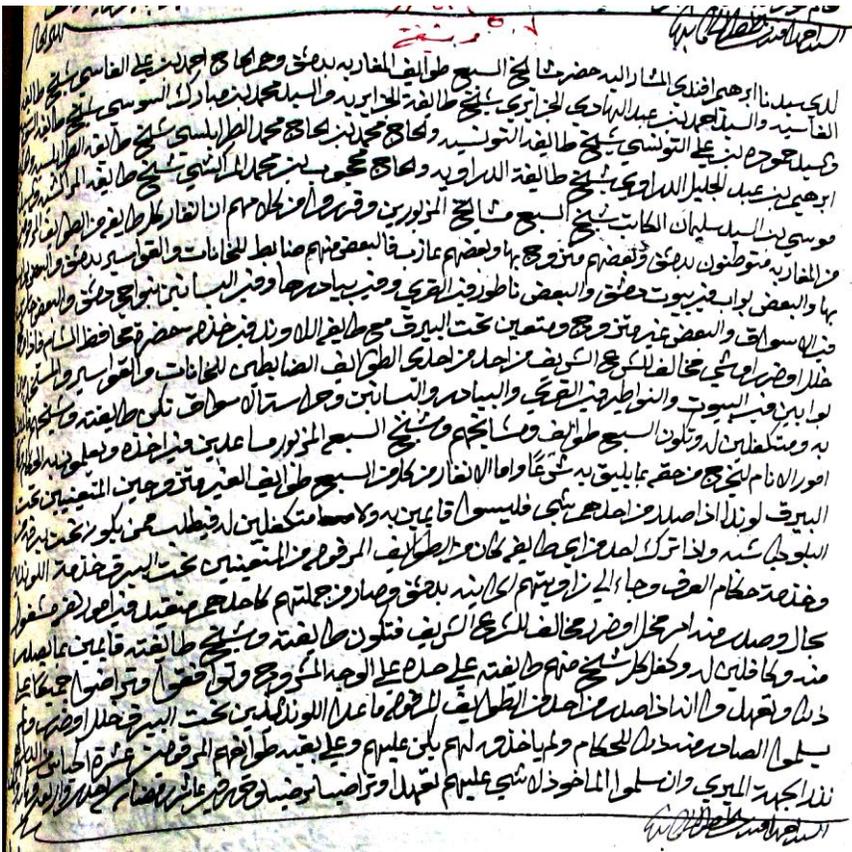
1) نص الوثيقة العثمانية

«لدى سيدنا إبراهيم أفندي المشار إليه، حضر مشايخ السبع طوائف المغاربة

بدمشق وهم:

الحاج أحمد بن علي الفاسي شيخ طائفة الفاسية

والسيد أحمد بن عبد الهادي الجزائري شيخ طائفة الجزائرية



صورة الوثيقة رقم 507 من السجل 51 صفحة 220 من سجلات محاكم دمشق الشرعية العثمانية، تاريخ الوثيقة 10 رمضان 1141هـ الموافق 9 نيسان/ إبريل 1729م.

والسيد محمد بن مبارك السوسي شيخ طائفة السوسية
والسيد حموده بن علي التونسي شيخ طائفة التونسية
والحاج محمد بن الحاج محمد الطرابلسي شيخ طائفة الطرابلسية
والحاج إبراهيم بن عبد الجليل الدراوي شيخ طائفة الدراوية
والحاج محبوب بن محمد المراكشي شيخ طائفة المراكشية
والسيد موسى بن سليمان الكاتب شيخ السبع مشايخ المزبورين
وقرروا من كلامهم:

أن أنفار كل طائفة من الطوائف المرقومين من المغاربة متوطنون بدمشق، وبعضهم
متزوج بها وبعضهم عازب.

فالبعض منهم ضابط للخانات والقواسير بدمشق.

والبعض بواب بها.

والبعض بواب في بيوت دمشق.

والبعض ناطور في القرى وفي بيادرها وفي البساتين بنواحي دمشق.

والبعض حارس في الأسواق.

والبعض غير متزوج ومتعين تحت البيرق مع طائفة اللاوند في خدمة حضرة
محافظ الشام فإذا وقع خلل أو ضرر أو شيء مخالف للشرع الشريف من أحد من
إحدى الطوائف الضابطين للخانات والقواسير والمستخدمين بوابين في البيوت
والنواطير في القرى والبيادر والبساتين وحراسة الأسواق تكن طائفته وشيخهم
قائمين به ومتكفلين له.

وتكون السبع طوائف ومشايخهم وشيخ السبعة المزبور مساعدين في أخذه،
ويُعلمون به الحكام وله أمور الأنام ليخرج من حقه ما يليق به شرعاً.

وأما الأنفار من كل من السبع طوائف، الغير متزوجين، المتعينين تحت البيرق لوندأ إذا صدر من أحدهم شيء فليسوا قائمين به ولا متكفلين له. فيطلب ممن يكون تحت بيرقه من البلوكباشية.

وإذا ترك أحد، من أي طائفة كان من الطوائف المرقومة من المتعينين تحت البيرق، خدمة اللاوندية وخدمة حكام العرف، وجاء إلى زاويتهم الكائنة بدمشق، وصار من من جملتهم كأحدهم، متقيد بأمور نفسه مشغول بحاله، وصدر منه أمر مخل أو ضرر مخالف للشرع الشريف، فتكون طائفته وشيخ طائفته قائمين بما يصدر منه وكافلين له. وكفل كل شيخ منهم طائفته على حده على الوجه المشروح. وتوافقوا وتراضوا جميعاً على ذلك.

وتعهدوا أنه إذا صدر من أحد من الطوائف المرقومة، ما عدا اللاوند الذين تحت البيرق، خلل أو ضرر، ولم يسلموا الصادر منه ذلك للحكام، ولم يأخذوه لهم، يكن عليهم وعلى بقية طوائفهم المرقومة عشرة أكياس من الدراهم نذراً لجهة الميري. وإن سلموا المأخوذ لا شيء عليهم. تعهداً وتراضياً مرضياً.

وحرر في عاشر رمضان سنة أربعين ومائة وألف.

توقيع كاتبها السيد أحمد أفندي الأسطواني.»

1) فوائد وتعقيبات

أ) هجرات المغاربة إلى دمشق وأسبابها

كانت الهجرة مستمرة من الجزيرة العربية إلى مصر والشام والمغرب أو من بعض هذه الأقطار إلى آخر. واستمرت هذه التحركات السكانية بعد الإسلام⁽¹⁾.

(1) زكريا أحمد وصفي، عشائر الشام، دار الفكر، دمشق 1997.

ويعتقد أن المغاربة أقاموا في دمشق بغية المجاورة وطلب العلم أو التجارة أو إيجاد عمل لهم مهما كان متواضعاً. ومن أهم أسباب الهجرات الحج. فكثيراً ما كان الحجاج المغاربة يقيمون بعد الحج في بلاد الشام⁽¹⁾.

وتميزت بعض العهود التاريخية بازدياد هذه الهجرة. ففي العهد العباسي مثلاً، لما بويغ المعتصم سنة 218هـ/833م، أقصى العرب عن الوظائف وقطع العطاء عنهم، ما أدى إلى حركتهم باتجاه الشام⁽²⁾.

وفي أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ذكر ابن جبير المغاربة في دمشق في وصفه للجامع الأموي أثناء رحلته التي زار فيها الشام. ومما قاله: «وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيها إجراء واسع، وللمالكية زاوية للتدريس على الجانب الغربي يجتمع فيه المغاربة ولهم إجراء معلوم». وخلال حديثه عن صعوده إلى قبة النسر قال: «صعدنا إليه في جملة من الأصحاب المغاربة، ضحوة الإثنين الثامن عشر لجمادى الأولى سنة 580هـ/1184م من مرقى في الجانب الغربي من بلاط الصحن، كان صومعة في القديم، وتمشينا على سطح الجامع المكرم وكله ألواح رصاص منتظمة...»⁽³⁾.

وأول الإشارات إلى وجود حامية مغربية في دمشق تعود إلى العهد المملوكي حيث كانت لهم زاوية في دمشق سنة 802هـ/1400م. كما وجد مثل ذلك في القدس وطرابلس⁽⁴⁾.

(1) حافظ مطيع وأباطة نزار. علماء دمشق وأعيانها في القرن 14 هجري. دار الفكر دمشق 1991

ط ج 2 ص 597.

(2) زكريا أحمد وصفي، مرجع سابق.

(3) طنطاوي علي، الجامع الأموي، دار المنارة جدة، 1990، ص 59 وص 61.

(4) نعيصة يوسف جميل، مجتمع مدينة دمشق، دار طلاس، دمشق، 1986.

ولقد ذكر الشيخ عبد الغني النابلسي في زيارته للقدس في القرن السابع عشر 1105هـ/ 1683م جامع المغاربة فيها⁽¹⁾.

وقد برزوا كطائفة عسكرية في القرن الثامن عشر لظهور حاجة الولاة إلى خدماتهم ولكن هذا لا يفسر ازدياد تدفقهم إلى بلاد الشام متجاوزين تدفق القوات الأخرى في هذه الفترة. ويمكن تفسير ذلك بأن المورد الأساسي لكثير منهم كان الغزو والدفاع عن الثغور في البحر،⁽²⁾ وهؤلاء كانوا جنوداً نظاميين في قوات البحرية يمارسون الدفاع عن الشواطئ والمياه الإقليمية لبلادهم ولم يكونوا «قراصنة» كما ساهم المؤرخون الغربيون والمستشرقون ومن تابعهم من مواطنينا، ولما توقف هذا المورد بضعف البحرية الجزائرية المغربية بشكل عام لتعاظم القوى البحرية الأوروبية وتصديها للبحرية المغربية بأقطارها الثلاثة ومهاجمتها الموانئ المغربية نفسها ما أدى لانقطاع هذا المورد الضخم للعديد من المغاربة. فتدفقوا إلى المشرق بحثاً عن الرزق وقدموا خدماتهم لولاة بلاد الشام في المجالات العسكرية كما عملوا في المرافق الاقتصادية المتعددة⁽³⁾.

وفي القرن التاسع عشر وقعت الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي منذ سنة 1830م. وكانت الهجرات إلى بلاد الشام في أول أمرها هجرة أفراد. أما الهجرات الجزائرية المعروفة، والتي تمت على دفعات، فقد كانت في أربعينات القرن التاسع عشر، 1840م وما بعد، وكانت كل دفعة تتألف من عدد من الرجال البارزين مع عائلاتهم وأقاربهم ومريديهم، إذ كان بعضهم من كبار الشيوخ وعلماء الدين، حتى أن بعض الهجرات سميت بهجرة المشايخ⁽⁴⁾.

(1) نعيصة يوسف جميل، مرجع سابق.

(2) الإبيش أحمد والشهابي قتيبة، معالم دمشق التاريخية، منشورات وزارة الثقافة دمشق 1996.

(3) نعيصة يوسف جميل، مرجع سابق.

(4) حافظ مطيع وأباظة نزار، مرجع سابق ج 2 ص 597.

وكان من أبرز هجرات المشايخ هجرة الشيخ محمد المهدي الزواوي السكلاوي، من مناطق القبائل الصغرى، سنة 1263هـ/ 1847م، وكان بصحبته نحو خمسمائة أسرة جزائرية وهي الهجرة الأولى من الجزائر المعروفة بهجرة العلماء⁽¹⁾.

أما الهجرة الجزائرية الثانية فهي هجرة الأمير عبد القادر وصحبه. فبعد انتهاء مقاومة الأمير عبد القادر عام 1847م ازدادت الدفعات الكبيرة من المهاجرين. وكما أن الاحتلال الفرنسي للجزائر كان بطيئاً وعلى دفعات، كذلك كانت هجرة الجزائريين متتابعة. بل إننا نلاحظ أنه كلما أخذت ثورة جزائرية تبعها سيل جديد من المهاجرين الذين آثروا العيش في بلاد إسلامية. وهذا ما نلاحظه على أثر إخفاق ثورات المقراني وأولاد سيدي الشيخ والحداد والأمير عبد القادر. وعندما استقر الأمير عبد القادر في دمشق قدر بعضهم عدد المهاجرين معه بـ8500 جزائري⁽²⁾.

وذكر بعض الباحثين أنه قدم إلى سورية من الجزائر في الثماني والسبعين سنة التي تلت عام 1886م مهاجرون توطن منهم 37 أسرة، 169 شخصاً، في قرية اسمها الحسينية عام 1886م دخلوا عن طريق سنجق عكا ووصل مائتان وأربعون مهاجراً عام 1892م توطنوا في سنجق عكا. فالهجرة الجزائرية إلى دمشق تزداد يوماً بعد يوم وهي لم تتوقف منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر⁽³⁾.

ومن آخر الهجرات المغربية، عام 1911م، فبانتشار الثقافة الفرنسية بين الجزائريين حدث انشقاق في صفوف الحركة الوطنية، بين المحافظين والشباب ذوي

(1) حافظ مطيع وأباظة نزار، نفس المرجع.

(2) حدّاد مولود، هجرة وما بعد هجرة الجزائريين إلى دمشق في القرن التاسع عشر. مجموعة البحث POexil باللغة الفرنسية. باريس.

(3) حافظ مطيع وأباظة نزار. مرجع سابق.

الثقافة الفرنسية. وقد رفض المحافظون الانخراط في الجيش الفرنسي. وهاجرت ثمانمائة أسرة، منهم ستمائة من منطقة تلمسان، إلى سورية لتحاكي ذلك⁽¹⁾.

ونذكر أخيراً الهجرة الجديدة التي بدأت في بداية التسعينات من القرن العشرين بسبب الأزمة السياسية والاقتصادية، وصعوبة الحصول على تأشيرات دخول لأوروبا⁽²⁾.

ب) تجمعهم في دمشق وأصولهم

كان المغاربة من أقطار ومدن عدة. وقد وجد سبع طوائف من المغاربة في دمشق، في القرن الثامن عشر فكان منهم الفاسيون والجزائريون والسوسيون والتوانسة والطرابلسيون والدرأوة والمراكشيون.⁽³⁾

وكان للمغاربة زاوية صوفية خاصة بهم وكان لهم خان في دمشق أطلق عليه خان المغاربة. وكانت الزاوية والخان ملقى للمغاربة في دمشق.⁽⁴⁾

وكان لكل فئة منهم شيخ، وكان ثمة شيخ مشايخ لهم جميعاً مسؤول أمام السلطات العثمانية عن سلوك أفراد طوائفهم.⁽⁵⁾

وخضع العسكريون من المغاربة لآغا المغاربة.⁽⁶⁾

وتعتبر الجالية الجزائرية المهاجرة من الجاليات الكبيرة العدد حتى أن بعضهم يقدر عددها الآن بـ100000 نسمة⁽⁷⁾.

(1) رافق عبد الكريم، العرب والعثمانيون، مكتبة أطلس، دمشق 1974.

(2) حدّاد مولود، مرجع سابق.

(3) رافق عبد الكريم، مرجع سابق.

(4) نعيصة يوسف جميل، مرجع سابق.

(5) رافق عبد الكريم، مرجع سابق.

(6) نفس المرجع.

وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً منهم ظل بادئ الأمر مقيماً في المنطقة الخاصة المعروفة بحي المغاربة بدمشق، في السويقة، فإن عدداً آخر ذاب في المجتمع الجديد فلم يعد له من جزائريته الأولى سوى نسبة⁽¹⁾. وبشكل عام فإن الهجرات الفردية كانت تندمج في المجتمع الجديد مباشرة أما الهجرات الجماعية فكانت تحافظ على عاداتها وأسلوب حياتها لجيلين أو ثلاثة قبل أن تندمج بشكل كامل.⁽²⁾

كان أهل الشام يطلقون لفظ «المغربي» على كل مهاجر من الجزائر أو ليبيا أو تونس أو مراکش دون تمييز بينهم. وكان من الأسباب التي أدت إلى اختلاط المهاجرين الجزائريين بغيرهم أن عدداً كبيراً منهم كان يهاجر أولاً إلى تونس ثم ينتقل بعد ذلك إلى بلاد الشام.⁽³⁾

وفي دمشق اليوم أسر كثيرة من أصل مغربي. نذكر منهم على سبيل المثال أسر العالم وقدورة والساطي والسعداوي من ليبيا، والتونسي والخضر والمغربي من تونس، وأسرة الحسيني الجزائري والجزائري واليعقوبي والمبارك والطيب والهاشمي والمرابط ومزيان والشرفاوي والسكلاوي والبيطار من الجزائر.⁽⁴⁾

ت) الوضع الإداري للمهاجرين الجدد

طرح هذا الموضوع بإلحاح بعد الهجرات الجماعية التي تلت الاحتلال الفرنسي للجزائر وخاصة بعد هجرة الشيخ محمد مهدي السكلاوي وهجرة الأمير عبد القادر الجزائري.

(1) حافظ مطيع وأباظة نزار، مرجع سابق.

(2) صوّاف محمد شريف. موسوعة الأسر المشقية. بيت الحكمة، دمشق، 2010، ط2، ج 1 ص

(3) حافظ مطيع وأباظة نزار، مرجع سابق.

(4) حدّاد مولود، مرجع سابق.

بما أن الجزائر كانت تخضع للسيادة الفرنسية منذ عام 1830م فإن تجنيس المهاجرين من الجزائر بالجنسية العثمانية قبل توطينهم أثار خلافات قانونية. وسويت هذه الخلافات عام 1889م بمسودة الاتفاق الذي اشترط اعتبار جماعات المهاجرين التي غادرت الجزائر للإقامة في سورية مواطنين عثمانيين ما عدا الذين اختاروا الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية.

وقد اختار بعضهم الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية لسببين. الأول هو احتفاظهم بالأمل في العودة إلى بلادهم بعد زوال سبب هجرتهم والثاني هو إعفاؤهم من الخدمة العسكرية الإلزامية¹³، ومن المعروف أن الشاب الذي كان يساق إلى الخدمة بتاريخه كان نادراً ما يعود حياً.

وقد اتخذت السلطات العثمانية إجراءات تشجيعية للمهاجرين الجزائريين، لكي تمكنهم من الاندماج في مجتمعهم الجديد والمحافظة على جنسيتهم العثمانية، فقد منحتهم ملكيات زراعية ليستقروا ويعملوا فيها وقامت بإعفائهم من الخدمة العسكرية الإلزامية.⁽¹⁾

وقد صدر مرسوم للمرة الثانية عام 1893م بتوطين المهاجرين الجزائريين في مناطق حلب وبغداد شريطة أن يراعوا قوانين الدولة.⁽²⁾

ومع ذلك فقد ظل المهاجرون الجزائريون موضع خلاف بين البلدين. ورغم الظروف الصعبة والاستثنائية التي مروا بها والنزاع حول تبعيتهم بين العثمانيين والفرنسيين، فإن الجزائريين الذين هاجروا إلى بلاد الشام استطاعوا في نهاية المطاف أن يحافظوا على هويتهم العربية الإسلامية وهم اليوم جزء لا يتجزأ من المجتمع في بلاد الشام وأحد مكوناته الرئيسية.

(1) الإيش أحمد والشهابي قتيبة، مرجع سابق.

(2) حافظ مطيع وأبازة نزار، مرجع سابق.

ث) الأعمال التي مارسوها

عمل المغاربة المقيمون في بلاد الشام حراساً في الخانات والحارات والأسواق، ومراقبين في البساتين والحقول المجاورة لمدينة دمشق.

ويلاحظ، حتى في القادمين فرادى، بروز بعض الشخصيات الهامة كالأمير نور الدين بن أبو الحسن المغربي التورمي (...-655هـ/...-1257م) ومنهم من كان له أثراً عميقاً ومستمراً في المجتمع الدمشقي بل ذاعت شهرته على مستوى العالم قاطبة كالشيخ محي الدين بن العربي (560-638هـ/1165-1240م)، من خلال مؤلفاته الصوفية والفلسفية المثيرة للجدل والمخالفة بظاهرها للشرع وأصول الدين⁽¹⁾.

استقر الجزائريون، الذين وصلوا دمشق بعد الاحتلال الفرنسي في القرن التاسع عشر، في عدد من القرى في سورية وفلسطين. وما يزال عدد كبير من سكان هذه القرى من أحفاد أولئك المهاجرين إلى اليوم في قراهم. كانوا في بلادهم شيوخاً أو مزارعين وقرويين لذلك عرفوا في بيئتهم الجديدة كيف يستثمرون مواهبهم. فظهر بينهم عدد من الشيوخ والعلماء كالشيخ طاهر الجزائري والشيخ محمد المبارك وأولاده. وعمل كثير منهم في القرى، أي أن كلاً منهم تابع في بيئته الجديدة ما كان يقوم به في موطنه الأول⁽²⁾.

ج) المغاربة تحت البيرق

لم يعتمد الولاية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر على الجند المرتزقة بشكل ملحوظ، بسبب قوة سلطة الولاية نسبياً وبسبب عدم وجود متطلبات محلية تستدعي ذلك.

(1) ابن طولون محمد، القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، مطبوعات

مجمع اللغة العربية، دمشق، 1980، ج2، ص 537 و619.

(2) حافظ مطيع وأباظة نزار، مرجع سابق.

وقد ازداد الاعتماد على هذه القوات في القرن الثامن عشر بسبب ما حدث من اضطراب بين فرقتي اليرلية والقابي قول، وبسبب تكليف ولاية دمشق بإمارة الحج باستمرار، منذ الربع الأول من القرن الثامن عشر، مما اقتضى استخدام قوات إضافية لحماية الحجاج.

واشتهر من الجند المرتزقة في بلاد الشام في القرن الثامن عشر، كل من المغاربة واللاوند والدالاتية والتفنكجية⁷ والسكبان والهوارة⁽¹⁾.

وكان جند المغاربة عادة من أصل مغربي، من شمال إفريقيا. وقد أتوا إلى بلاد الشام ومصر بطريق الحج أو المجاورة قرب الأماكن المقدسة. واستخدموا كمرتزقة في البلدين.

واستخدم عدداً كبيراً منهم أحمد باشا الجزائر والي صيدا. ولقد استخدمهم الولاية في مهام متعددة، وكان أبرزها حماية قافلة الحج الشامي⁽²⁾.

أما تنظيم الجنود المغاربة لدى والي دمشق فكان تنظيم شبه بدوي. وكان جلهم من المشاة وقلة منهم من الفرسان. وكان الواحد منهم لا يمتلك سوى البندقية والخنجر وحقيبة الجلد ويضع فيها قميصاً وسراويل وطاقيّة حمراء وخفياً. وكان تصنيفهم يجري على حسب الأسلوب التتري القديم فيجعلون شراذم، والشردمة عشرة رجال، وقلمها تكون كاملة، وكان يقودها آغا.

وإذا ما ترك الجندي المغربي الخدمة العسكرية لسبب ما أصبح في عهدة شيخ الطائفة المغربية التي ينتمي إليها⁽³⁾.

(1) نعيصة يوسف جميل، مرجع سابق.

(2) نفس المرجع.

(3) نفس المرجع.

وقد اشتهر اللاوند في الأناضول منذ عهد السلطان بايزيد الثاني (1481-1511م). والتسمية مشتقة من كلمة leventino التي أطلقها سكان البندقية على البحارة الذين خدموا في أسطولهم وكانوا من أصل شرقي من سواحل آسيا الصغرى. واستعيرت هذه التسمية لبحارة الأسطول العثماني، وحوّرت إلى لاوند levend.

وقد تمرد اللاوند أثناء خدمتهم فاستبدلوا بنوع جديد من البحارة، عرفوا بالعزب، في عهد بايزيد الثاني.

وانساح اللاوند المسرحون في الأناضول وبلاد الشام يبيعون خدماتهم لمن يطلبها. وبقيت التسمية قائمة رغم اختلاف أجناس العناصر التي اتخذتها كالأكراد والتركمان⁷ وحتى المغاربة كما يظهر من الوثيقة العثمانية المذكورة أعلاه.

وكان خان اللاوند بدمشق ملقى لجند طائفة اللاوند⁽¹⁾.

أما الدالاتية فتسميتهم مشتقة من كلمة deli التركية وتعني الأحمق أو المجنون. ودعوا بذلك نظراً لطيشهم. وجندوا من أجناس مختلفة من الأناضول⁽²⁾.

أما التفنكجية فتسميتهم مشتقة من «تفنكة»، أي بندقية، نظراً لكونهم من المشاة حاملي البنادق، وكانت عناصرهم من أصل محلي. فالتفنكجية، مثلاً، الذين استخدموا في بلاد الشام في القرن الثامن عشر كانوا بأكثرية من أصل موصلي أو بغدادي. وغالباً ما عملوا كشرطة⁽³⁾.

والسكبان من أقدم أصناف الجند المرتزقة، والتسمية كانت تطلق على مشاة الجيش العثماني قبل إنشاء الإنكشارية، وأصلها فارسي من سك وتعني كلب وبان وتعني حارس، وقد حورها العامة إلى سكبان. وكانوا خليطاً من الناس من كل البلدان.

(1) نفس المرجع.

(2) رافق عبد الكريم، مرجع سابق.

(3) نفس المرجع.

استخدمهم الأمراء والإقطاعيون في بلاد الشام في فترات متفرقة نذكر منهم الأمير فخر الدين المعني وعلي باشا جنبلات في بداية القرن السابع عشر وأحمد باشا الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. كانوا متمرسين في فنون القتال، منهم الفرسان ومنهم المشاة، منظمين في فرق أطلق على الواحدة منها اسم أوطة أو بلوك يقود كل واحدة سردار برتبة بلوكباشي. كما أطلق على سردارهم في بعض الأحيان اسم الأفنجي وحورت إلى الكنج⁽¹⁾.

والهواره صنف آخر من الجند المرتزقة، يعودون في أصولهم إلى قبيلة هواره في صعيد مصر أو إلى قبيلة هواره في المغرب. معظمهم من الفرسان وكان يرأسهم آغا. وكان يطلق على قائدهم اسم هوارى باشي. استخدموا في فترات متقطعة منها سنة 1237هـ/1822م من قبل عبد الله باشا والي صيدا. وفي سنة 1247هـ/1831م كانت قوات الهواره الفرسان طليعة جيش إبراهيم باشا المصري⁽²⁾.

ح) حي المغاربة

يقع حي المغاربة في محلة السويقة بأول طريق الميدان. سمي الحي بهذا الاسم نسبة إلى المغاربة الذين استوطنوا دمشق منذ القرون الأولى للإسلام، وبخاصة في عهد العباسيين والفاطميين والسلاجقة والعهد التالية لها.

وقد ازداد ورود المغاربة على الحي في العهد العثماني، وبخاصة من الجزائريين والليبيين، في القرن التاسع عشر الميلادي هرباً من اضطهاد الاستعماريين الفرنسي والإيطالي في شمال إفريقيا⁽³⁾.

(1) نعيمة يوسف جميل، مرجع سابق.

(2) نفس المرجع.

(3) الشهابي قتيبة، معجم دمشق التاريخي، وزارة الثقافة، دمشق، 1999

خ) زاوية المغاربة

زاوية المغاربة تنسب إلى الشيخ علاء الدين علي المشهور بابن وطية، المؤقت بالجامع الأموي، الذي وقفها سنة 802هـ. وكانت الزاوية تعرف به ثم عرفت بزاوية المغاربة لأنها كانت وقفاً عليهم على اختلاف أجناسهم،

وكان من شرط الالتحاق بها، أن لا يكون الطالب مبتدعاً أو سكيراً أو من أهل البلد، وأن يكون أفاقياً مغربياً،

وشرط على شيخها أن لا يكون بأبواب القضاة والحكام.

ووقف عليها حوانيت وطباقاً حولها⁽¹⁾.

وتقع الزاوية شمالي جامع الجراح بمقابر الباب الصغير وفي تلك المنطقة اليوم آثار واضحة وقبور قديمة وربما كانت الزاوية هناك⁽²⁾.

وقد ذكر ابن قاضي شعبة في نفس المنطقة «حارة المغاربة» التي كانت عند الطرف الشرقي لمقبرة الباب الصغير⁽³⁾.

د) خان المغاربة

يقع خان المغاربة في حي السويقة، ويسميه أبناء الحي «رباط المغاربة». أنشأه أحد أبناء الشمال الإفريقي الأثرياء ليكون منزلاً للحجاج القادمين من شمال إفريقيا حيث يقضي العرف بينهم زيارة دمشق بعد انتهاء مناسك الحج وعودتهم إلى ديارهم⁽⁴⁾.

(1) النعيمي عبد القادر، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، مطبعة الترقى، دمشق،

1951، ج2، ص 208.

(2) نفس المرجع.

(3) الشهابي قتيبة، مرجع سابق.

(4) نفس المرجع.

خان المغاربة، مع حي السويقة وقلعة دمشق، من الأماكن التي لجأ إليها النصارى في فتنة 1860 م الطائفية 5.

ذكره الأمير عبد القادر الجزائري في وصيته سنة 1300 هـ / 1883 م، وخصص له مبلغاً كبيراً من المال، لإعمارها وترميمه⁽¹⁾.

في عام 1951 م كانت تشغل مبناه مدرسة «ابن خلدون» الابتدائية ثم تبدل اسمها في حقبة لاحقة بسبب إطلاق اسم ابن خلدون على مدرسة التجهيز الأولى⁽²⁾.

ذ) زقاق النقيب

زقاق النقيب في دمشق يقع بالعمارة الجوانية. تلفظ العامة اسمه «النقيب» بتسكين النون جرياً على لفظ المغاربة، وصوابها بالفتحة. والاسم نسبة إلى نقيب الأشراف بدمشق كمال الدين الحمزاوي (...-933 هـ / 1527 م)، شيخ الإسلام ومفتي دار العدل.

وكان الزقاق مسكناً للمغاربة، من أهل الجزائر خصوصاً، وفدوه في القرن التاسع عشر، ولهم فيه دور كثيرة منها دار الأمير عبد القادر الجزائري الذي نزل دمشق عام 1854 م.

ولنقيب الأشراف الحمزاوي في الزقاق مسجد ما زال قائماً⁽³⁾.

(1) رجولة فواز منير، في ربوع دمشق، دمشق، 2009، ص 147 و 160.

(2) الشهابي قتيبة، مرجع سابق.

(3) الإبيش أحمد والشهابي قتيبة، معالم دمشق التاريخية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1996.

الخاتمة

وخلاصة القول، إن كانت كلمة «هجرة» تحتاج للمحقق «داخلية» لتصبح «هجرة داخلية» ليصبح التعبير المناسب لتحركات بعض مكونات شعب واحد في مجال جغرافي يقع ضمن حدود وطن واحد، يخضع لنفس السيادة والقوانين، لا تفصل بين أقاليمه المختلفة أي نوع من أنواع الحدود. هكذا كانت هذه الحركات المستمرة لمكونات هذا الشعب التي لم تتوقف منذ العصور السابقة للإسلام وحتى وقتنا الحاضر، وإن تعددت واختلفت أسبابها.

وما أجمل قول الأستاذ الدكتور محمد المبارك في كتابه الأمة العربية في معركة تحقيق الذات، ط 1959م، حين قال: «هاجرنا من الحجاز فيمن هاجر من أبناء الحسن بن علي وأقمنا في شتى أنحاء المغرب إلى أن استقر بنا المطاف في الجزائر، ثم غادرناها مع عدد كبير من سكانها بعد دخول الفرنسيين إليها عقب حرب دامت بضع عشرة سنة إلى بلد العروبة والإسلام دمشق حيث استقر بنا المقام منذ قرن وربع، وطالما كنت أقلب صفحات الرسائل المتبادلة بين جدي ومن بقي من أسرته في الجزائر وبينه وبين أخيه، أي محمد المنور، الذي هاجر بعد ذلك إلى اليمن»⁽¹⁾.

(1) حافظ مطيع وأباظة نزار، مرجع سابق.

المصادر

- 1) الإيبش أحمد والشهابي قتيبة، معالم دمشق التاريخية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1996.
- 2) حافظ مطيع وأباطة نزار. علماء دمشق وأعيانها في القرن 14 هجري. دار الفكر، دمشق، 1991.
- 3) حدّاد مولود، هجرة وما بعد هجرة الجزائريين إلى دمشق في القرن التاسع عشر، مجموعة البحث POexil باللغة الفرنسية، باريس.
- 4) رافق عبد الكريم، العرب والعثمانيون، مكتبة أطلس، دمشق 1974.
- 5) رجولة فواز منير، في ربوع دمشق، دار عبادة، دمشق، 2009.
- 6) زكريا أحمد وصفي، عشائر الشام، دار الفكر، دمشق 1997.
- 7) سجلات محاكم دمشق الشرعية العثمانية، مركز الوثائق التاريخية، دمشق.
- 8) الشهابي قتيبة، معجم دمشق التاريخي، وزارة الثقافة، دمشق، 1999.
- 9) صوّاف محمد شريف، موسوعة الأسر الدمشقية. بيت الحكمة، دمشق، 2010.
- 10) طنطاوي علي، الجامع الأموي، دار المنارة، جدة، 1990.
- 11) ابن طولون محمد، القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1980.
- 12) عليي أكرم حسن، خطط دمشق، دار الطباع، دمشق، 1989.
- 13) نعيصة يوسف جميل، مجتمع مدينة دمشق، دار طلاس، دمشق، 1986.
- 14) النعمي عبد القادر، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، مطبعة الترقّي، دمشق 1951.